مَـــارِعُ الأذهَـــان

تراثنا القـــديم

للأستاذ احمد أمين

خبران أثرا فى النفس أبلغ التأثير . وآثارا فى القلب كوامن الأسى والأسف .

أولهما أن أديبا كبيرا ، وخطيبا خطيرا طلب من احدى المكاتب القاموس المحيط للفيروزابادى ، فأرسلته اليه ، فاستقاله اياما ثم رده شاكرا لانه لم يستطع أن يعرف طريقة الكشف فيه . واذا استطاع فلا يفهم مايقول ، ولا يتبين مايشرح . لذلك يعتذر عن شرائه ويطلب بدلا منه معجما من المعاجم الحديثة ، كأقرب الموارد ومحيط المحيط والبستان ، لسهولة الكشف فيها ، ووضوح القصد من معانيها .

والثانى أن مجلسا من مجالس المديريات قرر انشاء مكتبة يتردد اليها طلبة المديرية ومثقفوها ، وعهد الى بعض رجاله اختيار الكتب الصالحة فلم يختر فيما اختار كتابا قديما كالقاموس المحيط ولسان العرب وتاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير والأغانى والعقد الفريد ونفح الطيب ، وانما قصر اختياره على ماأنتجه الأدباء المحدثون من روايات وقصص وتاريخ حديث ، وأدب من الوزن الخفيف .

راعنى مافى هذين الخبرين من دلائل مؤلمة : ومايحملان من نتائج خطيرة ! ان دلالة الخبرين أن تيار الفكر إنما يسير نحو الثقافة العصرية ، وان المثقفين انما يعتمدون على ماتخرجه المطابع من آثار الثقافات الأجنبية ، فاما تراثنا القديم ومافيه من ثراء ضخم فتلبو عنه أذواق الناشئة ومن يقودهم ويختارلهم . ولا يقبل عليه الا المستشرقون وأمثالهم من علماء قليلين يسيرون نحو الفناء ، دون أن يخلف من بعدهم خلف يقوم على هذا التراث فيحفظه ويثمره .

ولهذه الظاهرة أسباب أهمها :

أن هذه الكتب جارت عصرها ولم تجار عصرنا ، فالتعبير معقد ، والمعنى غامض ، والتأليف مشتت ، والمصطلحات جامدة ، والأمثلة واحدة تقطع هذا كله الصلة بين القديم والحديث ، ولم يستطع أن يتفهم هذه الكتب القديمة الا من نشأ عليها ، وانفق أكثر العمر فى فهم عباراتها ، وحل معمياتها . وكثير منهم وقف عند ألفاظها ومصطلحاتها ، ولم يسعفه الزمان بالتغلغل فى أعماقها واكتناه أسرارها واستخراج كنوزها . فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره فى رياض الأطفال ، وأسلمته هذه الى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا ، ويقرأ تلاميذها فى كتب ألفت على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع ، أصبح الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم أباتهم ، وصارت الكتب الأوربية أشهى الى نفوسهم وأقرب الى عقولهم من كتب الأدب العربى والفلسفة الاسلامية ، وكتب القانون الفرنسى أحب اليهم من كتب الفقه الاسلامى وهكذا . وهم اذا نظروا فى هذه الكتب العربية مزقوا بها وضحكوا منها ! فاذا وقع نظرهم فى الفقه على تحديد ماء الطهارة بأنه عشر فى عشر بذراع الكرباس ، قالوا مالنا والذراع الكرباس ؟ إنما نعرف الذراع البلدى والذراع المعمارى ، واذا رأوا نظام أخذ العشر قالوا ماذا يقابل ذلك من نظام الضرائب والجمارك ؟ وإذا نظر الأطباء فى كتاب القانون لابن سينا وقفوا امام أحاجى لاطاقة لهم بها . واذا نظر الأدباء فى الأغانى والعقد وأمثالها رأوا شرا كثيرا وخيرا قليلا ! وكان مافهموا أقل مما لم يفهموا .

الحق أن هذه مشكلة كبيرة تحتاج فى علاجها الى سعة الحكماء ، وأن مافى كتب أسلافنا من ثروة يحتاج الى عقول كبيرة تضع منهجا قويما للاستفادة منها .

ونحن بين اثنين : اما أن تتخصص منا طائفة صالحة لترجمة ثروتنا القديمة الى لغة العصر وروح العصر وأسلوب العصر ، فيستطيع ناشئتنا أن يضعوا أيديهم على تراث آبائهم ، واما أن يثقف أكبر عدد ممكن بنوع من الثقافة الشرقية القديمة ، فضلا عما عندهم من الثقافة الحديثة ، فيجمعوا الى مواردهم الأجنبية الموارد العربية ، ويخرج تاجهم منشعا بالروحين ، مستمدا من الثقافتين .

فان لم يكن هذا ولا ذاك خشيت بعد قليل أن تصبح كتبنا القديمة غير صالحة الا للأرضة تعيث فيها والعنكبوت ينسج عليها ، ويكون شأنها معها كما قال أبو العلاء :

سيسأل قومى عن الحجيج ومكة كما قال قوم ما جديس وما طسم